قِصَّةُ الْمَائِدَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

(حَقَائِقُ وَفَوَائِدُ)

إِعْدادُ :

د. عِمادِ بْنِ زُهَيْرِ حافِظ

الأُستاذِ فِي كُلِّيَةِ الْقُرآنِ الْكَرِيمِ فِي الْجامِعَةِ

المقدّمة

الحمد لله خالق الكون والبريّات، ومؤيّد أنبيائه ورسله بالآيات المعجزات، والصلاة والسلام على من بعثه سبحانه بأعظم البيّنات، آياتٍ وسورٍ، أحكامٍ وحِكَم، قصصٍ وعِبَر.. وبعد:

فكلّما شارفت على الانتهاء من تلاوة سورة المائدة تملّكني العَجَبُ مع استفهام مما قصّه الحقّ – عزّ وجلّ– عن طلب الحواريين عيسى– عليه السلام – إنـزال مائدة من السماء؛ حيث كانت أغرب وأعجب ما ذُكر في هذه السورة وخاتمتها.. سؤال مائدة تنـزل من السماء! أمر عجيب وغريب كيف جاء على بال أولئك المؤمنين من قوم عيسى عليه السلام حوارييه وخلصائه؟! وكيف يسألونه ذلك وهم أصدق قومه وأخلصهم إيماناً واتباعاً؟! هذا مع أسلوب في الحوار وطريقة في الكلام تثير عدداً من التساؤلات، فيقف القارئ أمام هذا الحوار متسائلاً مستوضحاً عن جمله وعباراته وطريقته وأفكاره.. سؤال وجواب بين الطرفين يستوضح كلٌّ منهما الآخر.. ومن بعد الإيضاح والبيان تأتي الإجابة – بعد الابتهال – من ربّ الأرباب مع تهديد ووعيد من الكفر بعد الإيمان.. ومن ثَمّ يقف النصّ القرآني الكريم عن إكمال القصة وإتـمامها!! فيقف القارئ مرة أخرى تلو مرّات متسائلاً مستوضحاً متعجباً عن سبب عدم الإكمال..

ما الهدف وما المسوّغات.. تعجّب إثر تعجّب واستغراب بعده استغراب .. فوددت بعدُ أن أبحث عمّا يزيل هذه التساؤلات المتعددة وتلكم الاستغرابات المتكرِّرة؛ فاستعنت بالله على خوض غمار هذه القصة القرآنية؛ وطالعت مطالعة المتفحّص الذي يريد أن يصل إلى مبتغاه.. طالعت كلام المفسرين من قديم

وحديث حتى وجدت – بتوفيق الله وتيسيره – ما يحقّق ما أردت ويوصلني لما ابتغيت، ورأيت أن أسمّي هذا البحث: قصة المائدة في القرآن الكريم –حقائق وفوائد– ثم قسّمته إلى تمهيد وفصلين وخاتمة. أمّا التمهيد فضمّنته مبحثين: المبحث الأول: مناسبة قصة المائدة في موضعها من السورة. والمبحث الثاني: حقيقة الحواريين. وأمّا الفصل الأول فجعلته بعنوان: " حوار الحواريين مع عيسى عليه السلام في طلب المائدة" واشتمل على ثلاثة مباحث. المبحث الأول: طلب الحواريين إنـــزال المائدة من عيسى عليه السلام. والمبحث الثاني: إجابة عيسى عليه السلام للحواريين. والمبحث الثالث: ردّ الحواريين على عيسى عليه السلام. والفصل الثاني جعلته بعنوان: " دعاء عيسى عليه السلام وإجابة الله تعالى له". واشتمل على مبحثين، المبحث الأول: دعاء عيسى عليه السلام ربّه تعالى. والمبحث الثاني: إجابة الله تعالى دعاء عيسى عليه السلام وأمّا الخاتمة فضمّنتها أهم النتائج والمقترحات.

هذا ولقد كان منهجي في البحث مبنياً على عدة أمور أهمّها ما يلي:

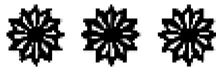
- الاعتماد على النصّ القرآني الكريم في هذه القصّة، وما يؤدي إليه من فهم صحيح لها ولأشخاصها، مع الاستعانة بكلام المفسرين الذين التزموا بما تؤدي إليه آيات القصة مراعين حقيقة الأشخاص التي دارت بينهم. ومن ثمّ الإعراض عن أقوال بعض المفسرين التي أرى أنّها مرجوحة ولم تراعِ الحقائق التي أخبر عنها القرآن الكريم في آيات أخرى، مع الردِّ والنقد لبعض تلك الأقوال التي أرى أنّه من المهمّ الردّ عليها ونقدها.
- الإعراض عن الإسرائيليات مع كثرتها فيما يتصل بتفاصيل هذه القصة، وذلك احتفاظاً بقوة البحث العلمية وتركاً لما يضعفه مما ليس له من سند صحيح مثبت، هذا مع ما تثيره تلك الإسرائيليات من مخالفة للحقائق،

أضف إلى ذلك أنّ فيما ذكره القرآن الكريم غنى عنه وكفاية لما يريده من إظهار حقيقةٍ أو درس أو عبرة ولله الحمد.

- العناية بذكر القراءات المتواترة مع توجيهها، وخصوصاً فيما يكون له أثر في بيان الآية أو إزالة إشكال في فهمها.
- العناية بذكر اللطائف حول آيات القصة والتي أرى من المناسب ذكرها لما فيها من زيادة إيضاح أو تأكيد لمعنى أو كشف لسرٍّ بلاغي أو لغوي يبيّن جمال النصّ القرآني الكريم.
- الاهتمام بذكر بعض الفوائد المناسبة والاستنباطات الملائمة والدلالات الهادفة والتي من شأنــها إبراز ما ترمي إليه هذه القصة القرآنية.

وأخيراً أسأل المولى سبحانه أن أوفّق لبيان قصة المائدة – على ما جاءت به آياتها– وذكر ما يفيد منها؛ عسى أن أضع لبنة حسنة في بيان القصص القرآني وفوائده، وأرجو منه –عزّ وجلّ– أن يتقبّل بحثي هذا في ميزان حسناتي يوم ألقاه وأن يغفر لي ما كان فيه من خطأ أو نسيان. آمين.

وصلّى الله وسلّم وبارك على نبينا وسيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن اهتدى بهديه واستنّ بسنّته إلى يوم الدين.



التمهيد

المبحث الأوّل: مناسبة قصة المائدة[1] في موضعها من السورة

يجدر بي قبل الشروع في بيان قصة المائدة أن أبيِّن مناسبة ورودها في موضعها من السورة؛ لما في ذلك من زيادة تجلية المراد منها وتمهيداً لكشف أسرارها وفوائدها. هذا وقد ناسب مجيء هذه القصة - ههنا- بين الامتنان من الله تعالى بنعمه على عيسى -عليه السلام - وبين الاعتراض بذكرها تلفُّتاً إلى نبينا محمد ﷺ والمؤمنين من أصحابه -رضي الله عنهم- وبين التخلّص إلى ذكر هذه القصّة لمناسبة حكاية ما دار بين عيسى عليه السلام وبين الحواريين في قوله تعالى ﴿وإذ أوحيتُ إلى الحواريّن أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنّا واشهدْ بأنّنا مسلمون﴾[2].

(١) المقصود من المائدة ههنا هو الطعام نفسه. وقد ذهب أهل اللغة وتبعهم أهل التفسير في معنى المائدة إلى قولين، فالأكثر على أنّ المائدة هي الخُوان الموضوع عليه طعام، أي أنّ المائدة اسم مركب يدلّ على طعام وما يوضع عليه، وهي فاعلة من ماد يميد إذا تحرّك، فكأنّها تميد بما عليها أي تتحرّك، وقيل لأنّها ميد بها صاحبها أي أعطيها وتفضل عليه بها. والقول الثاني على أنّ المائدة الطعام نفسه وإن لم يكن هناك خوان، وإلى هذا ذهب ابن منظور في لسان العرب. ومن قال بالأوّل قال: إنّما أطلق على المائدة طعاماً تجوّزاً لأنه يؤكل على المائدة، وجوّز البعض إطلاق المائدة على الخوان مجرّداً عن الطعام باعتبار أنّه وضع أو سيوضع. (انظر: لسان العرب ٣/٤١١؛ النكت والعيون للماوردي ١/٤٩٩؛ تفسير ابن جزي ص١٧٠؛ تفسير ابن كثير ٢/١٢٠؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ١٢/١٣٠؛ تفسير القرطبي ٦/٣٦٧؛ حاشية الصاوي على الجلالين ١/٣١٤-٣١٥؛ تفسير الآلوسي ٧/٥٩؛ محاسن التأويل للقاسمي ٦/٤٣٠-٤٣١، التحرير والتنوير لابن عاشور ٧/١٠٦.

(٢) سورة المائدة: الآية (١١١).

وذلك لما تمثّله هذه القصة من كشف حالهم معه – عليه السلام – وما تنطوي عليه من العبر والفوائد.

أمّا في مناسبة الامتنان منه – عزّ وجلّ– على عبده ونبيه عيسى عليه السلام فلما أجاب سبحانه دعاءه بإنــزال المائدة، وذلك تبعاً لقوله تعالى قبلها ﴿إذ قال الله يٰعيسى ابن مريم اذكُرْ نعمتي عليكَ وعلىٰ والدتك.. ﴾ الآية[1]. فإنّه تعالى عدّد من نعمه عليه في هذه الآية الكريمة مما أجراه على يديه من المعجزات وخوارق العادات، ثمّ ذكّره أيضاً بما كان من نعمته عليه في إيمان الحواريين، وتبع ذلك تذكيره ههنا بنعمة استجابته لدعائه بإنزال المائدة آية باهرة وحجة قاطعة[2].

وأمّا بالنظر إلى شأن نبينا محمد ﷺ وصحابته – رضوان الله عليهم– فهي في محلّ اعتراض أثناء وصف حال قول الله تعالى لعيسى – عليه السلام – يوم القيامة متضمّناً إخبار الرسول ﷺ وصحبه – رضي الله عنهم – بنازلة الحواريين في أمر المائدة؛ إذ هي مثال نافع لكلّ أمّة مع نبيّها تقتدي بمحاسنه وتزدجر عمّا ينفر منه من طلب الآيات ونحوه[3].

وأمّا آخر أوجه المناسبة فهو ما ذكره ابن عاشور بقوله: " ويجوز أن تكون جملة ﴿إذ قال الحواريّون يٰعيسىٰ ابن مريم هل يستطيع ربُّك أن يُنزِّل علينا مائدةً من السَّماء.. ﴾ ابتدائية بتقدير (اذكر) فيكون الكلام تخلّصاً إلى ذكر قصة المائدة لمناسبة حكاية ما دار بين عيسى عليه السلام وبين الحواريين في قوله تعالى: ﴿وإذ

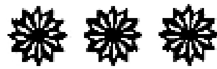
(١) سورة المائدة: الآية (١١٠).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٢/١٢٠؛ تفسير أبي السعود ٣/٩٧؛ البحر المحيط لأبي حيان ٤/٥٣.

(٣) انظر: تفسير أبي حيان ٤/٥٣؛ تفسير الثعالبي ١/٥٠٠؛ نظم الدرر للبقاعي ٢/٥٦٩.

أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي.. ﴾" الآية (١).

وأقول: لا ريب أنّ في تعدّد أوجه المناسبة دلالة على إعجاز القرآن الكريم؛ حيث يستوعب النصّ القرآني مدارات الكلام بما يناسب أحوال وشؤون المنـــزّل عليهم وغيرهم ممن ينتفع منه بطريقة مباشرة وغير مباشرة، وهذا سرّ من أسرار ترتيب آيات القرآن الكريم يوفّق الله تعالى له من يجتهد في كشفه والبحث عنه دون تكلّف ولا تأويل. والله أعلم بمراده.



(١) التحرير والتنوير لابن عاشور: ١٠٥/٧.

المبحث الثاني: حقيقة الحواريين

يلزمني في هذا التمهيد أن أبيِّن حقيقة الحواريين، وذلك إزالةً لإشكال سيرِد في بيان هذه القصّة في شأن إيمان الحواريين أذكره في حينه. هذا وقد بيّن القرآن الكريم حقيقتهم من سَبْقهم في الإيمان بالله تعالى وبرسوله عيسى عليه السلام وعدم تردّدهم في تصديقه والإيمان بما جاء به، وأنّهم أخلصوا له في نصرته ونصرة دينه، ولازموه حقّ الملازمة حتى أظهرالله أمره ودينه وأعلى كلمته وشرعه. ودلّ على هذا في سور آل عمران والمائدة والصف، ففي سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿فلمّا أحسَّ عيسىٰ منهم الكُفْرَ قال مَنْ أنصاري إلى الله قال الحواريّون نحن أنصارُ الله آمَنّا بالله واشهدْ بأنّا مسلمون. رَبَّنَا آمَنّا بما أنزلتَ واتَّبعنا الرَّسولَ فاكْتُبْنا مع الشَّاهدين﴾ [1].

فتبيّن هاتان الآيتان أنّ عيسى عليه السلام لّما أرى قومه الآيات الموعود بها ودعاهم إلى التصديق به وطاعته كفروا، فلمّا تبيّن له كفرهم دعا في ملأ بني إسرائيل إلى من ينصره في إعلان الدين والدعوة إليه فكان أن بادرت مجموعة بالاستجابة ولقّبهم الله بالحواريين[2]، وألهمهم وألقى في قلوبهم الإيمان ونصرة

(١) سورة آل عمران: الآيتان (٥٢-٥٣).

(٢)الحواريّون لقب على أنصار عيسى عليه السلام. وفي أصل اشتقاق هذا اللقب في اللغة عدة أقوال أظهرها ما حكاه الزّجاج بأنّ أصل التحوير في اللغة من حار يحور وهو الرجـــوع، والحواريّون مَن رُوجع في اختياره مرة بعد مرة فوُجد نقياً من العيوب، فالحواريّون هـــم الذين أخلصوا ونقّوا من كلّ عيب. وقيل: أصل التحوير التبييض، وإنما سمّـــوا كـــذلك لأنهم كانوا يغسلون الثياب أي يحوّرونـــها وهو التبييض. وقيل: شُبهوا ببياض ثيابهم لما هُم عليه من نقاء سرائرهم وهو يلتقي مع القول الأوّل في معنى النقـــاء. (انظـــر: لـــسان =

دينه ورسوله. ومثله ما أخبر الله عنه في سورة المائدة ﴿وإذ أوحيتُ إلى الحواريّين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنّا واشهد بأنّنا مسلمون﴾ [1]. وهو ما عبّرت عنه آية سورة الصف في قوله تعالى: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا كونوا أنصارَ الله كما قال عيسى ابنُ مريم للحواريّين مَن أنصاري إلى الله. قال الحواريُّون نحن أنصارُ الله فآمنت طّائفة من بني إسرائيل وكفرت طّائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين﴾ [2].

ومما تقدّم من بيان القرآن الكريم يتّضح جلياً أنّ الحواريين هم السابقون من المؤمنين بعيسى عليه السلام وبرسالته، وهم أخلص قومه بالله ورسوله وبالنصرة والدعوة لدينه، ولذلك كانوا مثالاً يضربه الله تعالى للمؤمنين في كل زمان في ثباتــهم على الإيمان ونصرتــهم لدينه وقيامهم بواجب الدعوة إلى الله تعالى [3]. فهذه حقيقتهم التي بيّنها القرآن وأحببت ذكرها في هذا التمهيد لأهميتها لما بعدها من فقرات البحث..



= العرب لابن منظور ٤/٢٢٠؛ النكت والعيون للماوردي ١/٥٠٣).

(١) سورة المائدة: الآية (١١١).

(٢) سورة الصف: الآية (١٤).

(٣) انظر: تفسير الماوردي ١/٥٠٣؛ تفسير القرطبي ٦/٣٦٤؛ تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ٧/٢٤٨؛ التحرير والتنوير لابن عاشور ٣/٢٥٥-٢٥٦.

الفصل الأول:

حوار الحواريين مع عيسى عليه السلام في طلب المائدة

تقديم:

في هذا الفصل أتحدّث عن حوار الحواريين مع عيسى –عليه السلام– حين طلبوا منه سؤال الله تعالى إنـــزال مائدة من السماء، وهو ما جاء في قوله عزّ وجلّ: ﴿إذ قال الحواريّون يعيسى ابن مريمَ هل يستطيع ربُّك أن يُنَزِّلَ علينا مائدة من السَّماء قال اتَّقوا اللهَ إن كنتم مؤمنين. قالوا نريد أن نأكل منها وتَطمئنَّ قلوبنا ونَعلمَ أن قد صَدَقْتَنَا ونكونَ عليها من الشَّاهدين﴾ [1]، وسأبيِّن هذا الحوار في ثلاثة مباحث على ما يلي:

المبحث الأول:

طلب الحواريين إنزال المائدة من عيسى عليه السلام

يجيء طلب الحواريين للمائدة من عيسى – عليه السلام – بصيغة الاستفهام والسؤال عن استطاعة الله تعالى في إنزالها من السماء، وذلك قولهم: ﴿هل يستطيع ربُّك أن يُنزِّل علينا مائدة من السَّماء﴾؟ هذا وظاهر السؤال في طلبهم قد يثير إشكالاً بالنسبة إلى إيمان الحواريين؛ وقد قيل: إنّ سؤالهم عيسى –عليه السلام – عن استطاعة الله تعالى هو شكٌّ في قدرته سبحانه؛ والشكُّ في ذلك كفر؛ فكيف يصدر منهم ذلك؟! كما أنّه قد ذهب البعض إلى أنّ هذا السؤال كان قبل إيمانـــهم، قال الخازن: " وقال بعضهم هو على ظاهره، قال غلط

(١) سورة المائدة: الآيتان (١١٢-١١٣).

القوم وقالوا ذلك قبل استحكام الإيمان والمعرفة في قلوبهم؛ وكانوا بشراً، فقالوا هذه المقالة، فردّ عليهم غلطهم بقوله ﴿قال اتّقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ يعني اتقوا الله أن تشكّوا في قدرته"[1].

وهذا الإشكال يمكن الردّ عليه من عدّة وجوه، وأقول ابتداءً أنّ الحواريين -كما بيّنت في التمهيد- هم خلّص المؤمنين وسابقوهم إلى الإيمان بما دلّت عليه الآيات القرآنية، وقد سمّاهم الله تعالى حواريين حين ذكرهم وهو وصف ثناء يدلّ على إيمانهم وينفي أن يكونوا على غيره بلا ريب، وليس من المعقول أن يجهلوا قدرة الله تعالى واستطاعته على كلّ شيء؛ فالأنبياء جاءوا بمعرفة الله تعالى وما يجب له وما يجوز وما يستحيل عليه وأن يبلّغوا أممهم بذلك؛ فكيف بخلّص المؤمنين هؤلاء وسابقيهم؟! ثمّ إنّ الله - تبارك و تعالى - قد ذكر قبل الحديث عن قصة المائدة هذه إيمانـــهم في قوله: ﴿وإذ أوحيتُ إلى الحواريّين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنّا واشهدْ بأنّنا مسلمون﴾[2]،

وهذا يدلّ -أيضاً- على أنّهم كانوا مؤمنين حال طلبهم المائدة. وكذلك فإنّ قول عيسى عليه السلام لهم لـــمّا سألوا إنـــزال المائدة ﴿قال اتّقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ فيه تقرير لإيمانـــهم. كما أنّه يؤيّد ذلك قول الحقّ سبحانه حين استجابته لدعاء عيسى -عليه السلام- بإنـــزال المائدة: ﴿فمن يكفرْ بعدُ منكم﴾ فدلّ هذا على أنّهم كانوا على الإيمان. ثمّ إنّ الله -عزّوجلّ- قد أمر المؤمنين بالتشبّه بهم والاقتداء بسنّتهم في قوله: ﴿يا أيّها الذين آمنوا كونوا أنصارَ الله كما قال عيسى

(١) تفسير الخازن: ٢/١٠٩-١١٠، وانظر: تفسير أبي السعود ٣/٩٧؛ تفسير ابن جـــزي ص ١٧٠؛ تفسير الثعالبي ١/٥٠٠؛ فتح القدير للشوكاني ٢/٩٧.

(٢) سورة المائدة: الآية (١١١).

ابن مريم للحواريّين مَن أنصاري إلى الله . . ﴾ الآية[١].

وهكذا فهذه الدلالات كافية في إثبات إيمانهم حال طلبهم المائدة[٢].

وعلى ما سبق ذكره كان لابدّ من حمل سؤالهم هذا بما يتناسب مع صدق إيمانهم وإخلاصهم لله تعالى، وفي ذلك سطّر العلماء عدّة وجوه مناسبة:

أحدها: أنّ هذا السؤال سؤال عن الفعل لا عن القدرة عليه، فعبّر عنه بلازمه، فالمسؤول عنها هي استطاعة المطاوعة أي الإجابة لقولهم وفعل ما طلبوه لا استطاعة القدرة، ولذلك ذهب بعض المفسرين إلى أنّ (يستطيع) بمعنى (يطيع) كيستجيب بمعنى يجيب؛ ذلك أنّهم موقنون بقدرة الله تعالى على كل شيء، وإنّهم إنّما طلبوا ذلك رغبةً منهم في الحصول على مزيد الطمأنينة واليقين ولا حرج في هذه الرغبة، وإنّه كما حصل من الخليل إبراهيم –عليه السلام– إذ قال ﴿ربّ أرني كيف تُحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئنّ قلبي . . ﴾ الآية[٣]، وقد كان –عليه السلام– عالماً بقدرة الله تعالى علم خبر ونظر؛ ولكن أراد المعاينة التي لا يداخلها ريب ولا شبهة؛ لأنّ علم النظر والخبر قد تدخله الشبهات والاعتراضات وعلم المعاينة لا يدخله شيء من ذلك، ومن أجل هذا قال الحواريون كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وتطمئنّ قلوبنا﴾[٤].

---

(١) سورة الصف: الآية (١٤).

(٢) انظر: تفسير القرطبي ٣٦٥/٦؛ تفسر الآلوسي ٥٨/٧؛ تفسير ابن جزي ص١٧٠.

(٣) سورة البقرة: الآية (٢٦٠).

(٤) انظر: تفسير الطبري ٨٣/٧-٨٤؛ تفسير البغوي ٧٨/٢؛ تفسير الثعالبي ٥٠٠/١؛ تفسير القرطبي ٣٦٥/٦؛ تفسير أبي حيان ٥٣/٤؛ تفسير أبي السعود ٩٧/٣؛ فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن لأبي يحيى زكريا الأنصاري ص١٥٣؛ تفسير المهايمي ٢٠٥/١؛ محاسن التأويل للقاسمي ٤٢٩/٦؛ فتح القدير للشوكاني ٩٧/٢؛ تفسير المنار =

ثانيها: أنّ السؤال –ههنا– عن الاستطاعة على ما تقتضيه الحكمة الإلهية والإرادة الربّانية لا على ما تقتضيه القدرة؛ فإنّ أفعاله –تعالى– مبنية على حكمته وإرادته؛ وما كان منافياً للحكمة لايقع قطعاً وإن كان ممكناً[1].

ثالثها: أنّ سؤالهم بهذه الصورة يرجع إلى التهييج والإلهاب بسبب طلب الاجتهاد في الدعاء لتحصيل الإجابة من الله تعالى[2].

رابعها: أنّ قولهم هذا هو من باب التلطّف والتأدّب في السؤال؛ كما يقول الإنسان لمن هو أعلى منه وأجلّ قدراً: هل تقدر أن تذهب معي إلى كذا؟ وهو يعلم أنّه قادر، ولكنّه يريد بهذا الكلام أن يبيّن محبته لذلك مع كونه لا يريد المشقّة على المسؤول[3].

خامسها: وهذا الوجه الأخير مستند على قراءة الكسائي إذ قرأ: ﴿هل تستطيعَ ربّك﴾ بتاء الخطاب في (يستطيع) وبنصب (ربّك)، ذلك أنّ المراد على حذف المضاف وهو السؤال، أي هل تستطيع يا عيسى سؤال ربّك أي أن تسأل ربّك. فحُذف السؤال وأُلقي إعرابه على ما بعده فنصبه كما قال تعالى: ﴿واسأل القرية﴾ [4]، أي أهل القرية[5]. فعلى هذه القراءة ينتفي الإشكال الوارد،

= لمحمد رشيد رضا ٧/٢٥٠-٢٥١؛ تفسير النسفي ١/٣٠٠؛ التحرير والتنوير لابن عاشور ٧/١٠٥.

(١) انظر: تفسير أبي حيان ٤/٥٣؛ تفسير أبي السعود ٣/٩٧؛ تفسير المنار ٧/٢٥٠؛ التفسير الواضح لحجازي ١/٢٥٦.

(٢) انظر: نظم الدرر للبقاعي ٢/٥٧٠.

(٣) انظر: نظم الدرر للبقاعي ٢/٥٧٠؛ تفسير السعدي ٢/٣٦٣؛ التحرير والتنوير٧/١٠٥.

(٤) سورة يوسف: آية ٨٢.

(٥) انظر: النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢/٢٥٦؛ الحجة للقراء السبعة للفارسي =

بل إنّ فيها معنى التعظيم لله تعالى من حيث إنّ الحواريين يستفهمون عيسى – عليه السلام– عن استطاعته سؤال الله تعالى إنزال المائدة، ولم يستفهموه عن استطاعة الله –عزّ وجل– لأنهم موقنون باستطاعته بلاشك[1]. وبهذا تكون هذه القراءة المتواترة مؤيّدة في معناها لما ذُكر من الوجوه السابقة في أنّ الحواريين لم يكونوا في شكٍّ من قدرة الله تعالى، بل كانوا مؤمنين به حقّ الإيمان. ولله الحمد والمنّة.

● فوائد ولطائف:

الأولى: إنّ في ذكر قصة المائدة بهذه السورة الكريمة التي افتتحت بإحلال المآكل واختتمت بها أعظم تناسب، وفي هذا كلّه إشارة إلى تذكير هذه الأمّة المحمّدية بما أنعم الله تعالى عليها من إعطاء نبيها ﷺ من المعجزات التي أعظمها هذا القرآن الكريم، وما منّ عليها – كذلك – به من حسن الاتباع والطاعة، كما أنّ في هذا أيضاً إشارة إلى تحذيرها من كفران هذه النعم المتعدّدة التي لا حدّ لها ولا إحصاء.

الثانية: إنّ في مناداة الحواريين لعيسى عليه السلام باسمه العلم دون قولهم له يا رسول الله أو يا نبي الله إشارة إلى فضل نبينا محمد ﷺ عليه؛ إذ إنه قد نهى الله عزّ وجلّ المؤمنين أن ينادوه صلى الله عليه وسلم باسمه إذ قال سبحانه: ﴿لاتجعلوا دُعاءَ الرَّسولِ بينكم كدُعاءِ بعضكم بعضاً﴾[2]، وذلك بأن ينادوه بيا رسول

= ٢٧٣/٣؛ حجة القراءات لابن زنجلة ص ٢٤١؛ تفسير الطبري ٨٤/٧؛ تفسير ابن كثير ١٢٠/٢.

(١) انظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي بن أبي طالب ٤٢٢/١.

(٢) سورة النور: الآية (٦٣). وانظر: تفسير البغوي ٣٥٩/٣.

الله أو يا نبي الله أو بكنيته يا أبا القاسم تعظيماً له وتوقيراً، وحيث إنّ الحواريين وهم خلّص المؤمنين نادوا عيسى – عليه السلام– باسمه فدلّ ذلك على ما ذكرت. والله أعلم.

ومن جهة أخرى ذكر بعض المفسرين أنّ مناداة الحواريين لعيسى عليه السلام بعيسى بن مريم أي باسمه ونسبوه إلى أمّه؛ لئلا يتوهّم أنّهم اعتقدوا إلهيته أو ولديّته حتى يستقلّ بإنزال المائدة(١). وهذا الذي ذكروه ملحظ لطيف؛ إذ فيه بيان لاعتقادهم الاعتقاد الحقّ وأنّهم معظّمون لأمر التوحيد حقّ التعظيم.

الثالثة: إنّ في سبب سؤال الحواريين أن تكون المائدة منــزّلة من السماء رغبةً منهم أن تكون هذه المائدة خارقة للعادة ليست من صنع الآدميين في العالم الأرضي فتعيّن بذلك أن تكون من العالم العلويّ(٢).

وبهذه الفوائد واللطائف يتمّ الحديث عن هذا المبحث، ولله الحمد والمنّة.



(١) انظر: تفسير ابن جزي ص١٦٩؛ تفسير محاسن التأويل للقاسمي ٤٢٨/٦؛ تفسير المهــايمي ٢٠٥/١.

(٢) انظر: نظم الدرر للبقاعي ٥٧٠/٢؛ التحرير والتنوير لابن عاشور ١٠٦/٧.

المبحث الثاني: إجابة عيسى عليه السلام للحواريين

ولمّا سأل الحواريّون عيسى –عليه السلام– إنـزال مائدة من السماء أجابهم بالأمر بتقوى الله – عزّوجلّ– والمحافظة على إيمانهم ﴿قال اتّقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾، وذلك استعظاماً منه لما سألوه، ومن أجل هذا جاء في خطابه لهم بـ(إن) المفيدة للشكّ في إيمانـهم حتى يُعلِمهم خشيته عليهم بأن يكون سؤالهم هذا عن شكٍّ في صدقه إذ سألوه معجزة من السماء يعلمون بها صدقه بعد أن آمنوا به وجاءهم من المعجزات ما فيه غنى عنها. وهو كقول الله تعالى لإبراهيم عليه السلام حين سأله: ﴿ربّ أرني كيف تُحيي الموتى﴾ فقال له: ﴿أولم تؤمن﴾ [1]، أي ألم تكن غنياً عن طلب الدليل المحسوس؟! كما أنّ توجيهه لهم بلزوم التقوى – استعظاماً لما قالوا – يحمل أيضاً شعوراً بشفقته عليهم أن تصيبهم فتنة في دينهم، فإنّ المؤمن يحمله ما معه من الإيمان على ملازمة التقوى والانقياد لأمر الله وعدم طلب آية معجزة مقترحة لايدري ما يكون بعدها من قدر الله وقضائه بخلقه وعباده. ثمّ إنّ في ذلك التوجيه حثاً لهم بأن لاينشغلوا بالأسئلة والاقتراحات عمّا هو أولى من مقتضيات الإيمان بالله وتقواه من القيام بالطاعات واجتناب المنهيات، وفي هذا بلا شكّ تربية لهم على الارتقاء بأفكارهم والسموّ بها عما يخدشها ويؤثّر في صحتّها. فهذه الأمور ونحوها هي ما دلّت عليه إجابة عيسى – عليه السلام – للحواريين في قوله ﴿اتّقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ بشأن طلبهم إنـزال المائدة، وهي ما تتناسب مع مكانتهم في الإيمان وإخلاصهم [2]. والله أعلم.

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٦٠).

(٢) انظر: تفسير الطبري ٨٤/٧؛ النكت والعيون للماوردي ٥٠٠/٢؛ تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٥٤/٤؛ تفسير ابن كثير ١٢٠/٢؛ تفسير القرطبي ٣٦٦/٦؛ تفسير النسفي =

● فائدتان:

الأولى: إنّ عيسى – عليه السلام – قدّم مثالاً رائعاً في حرص الأنبياء والرسل على رفقائــهم وأصحابهم المؤمنين؛ فكان أنموذجاً حيّاً في الشفقة والخشية عليهم أن يكونوا في موارد ضعف الإيمان وبُعد التصديق فيحلّ بهم عقابٌ من الله ومؤاخذة في الدنيا والآخرة. هذا ما يلمسه المتأمِّل في إجابته – عليه السلام– للحواريين: ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ لــمّا خشي أنّ طلبهم لإنــزال مائدة من السماء ناتج عن ضعف في الإيمان أوشكٍّ في التصديق، فدعاهم إلى تقوى الله تعالى وحثّهم على الالتزام بها مخاطباً لهم بالإيمان الذي في قلوبهم، والذي ينبغي أن يكون دافعاً إيّاهم إلى طلب محابِّ الله ومانعاً لهم مما يسْخطه عليهم ويغضبه. ولا ريب أنّ في هذا درساً لكلّ داعية إلى الله تعالى في الحرص على إيمان مدعوِّيه وتجنيبهم ما يوردهم موارد الضعف أو الشكّ، ومن ثَمّ تربيتهم على الارتقاء بهذا الإيمان وزيادته وذلك بالالتزام بتقوى الله عزّوجلّ والسموّ بأفكارهم ومطالبهم بما يليق بالاعتقاد الحقّ وأهله.

الثانية: دلّ قول الله تعالى – على لسان عيسى عليه السلام – ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ على العلاقة المباشرة والارتباط الوثيق بين الإيمان والتقوى، فكلّما كان الإيمان متمكّناً في قلب صاحبه كانت التقوى ملازمة له في كلّ ما يأتي ويذر من الأعمال والأقوال. وكلّما كان العبد متقياً لله تعالى في قوله وعمله دلّ ذلك على قوّة إيمانه، فبقدر الإيمان تكون التقوى وبقدر التقوى يكون الإيمان؛ فهما أمران متلازمان يدلّ أحدهما على الآخر.

– وبهاتين الفائدتين يتمّ الحديث عن هذا المبحث ولله الحمد والمنّة.

= ١/٣٠٠؛ تفسير السعدي ٣/٣٦٤؛ التحرير والتنوير لابن عاشور: ٧/١٠٦ – ١٠٧.

المبحث الثالث: ردّ الحواريين على عيسى عليه السلام

ولمّا شعر الحواريّون من جواب عيسى عليه السلام لهم استعظامه لسؤالهم وخشوا أن يكونوا في محلّ الإنكار والمؤاخذة بأنّ في قلوبهم شبهة من شكٍّ في قدرة الله تعالى أو في صحّة نبوته ممّا يقدح في إيمانهم وتقواهم.. لمّا أحسّوا بذلك أفصحوا عن سبب سؤالهم المائدة وبيّنوا مقصودهم في أربعة مقاصد صالحة تنبئ عن صدق إيمانهم بالله وقدرته وبما جاء به رسوله، وذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئنّ قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشّاهدين﴾ [1].

فأوّل هذه المقاصد: إرادتهم التيمّن وطلب البركة من الله تعالى بأكل طعام نازل من السماء من عند الله إكراماً لهم، ولذلك زادوا في قولهم ﴿منها﴾ ولم يقتصروا على ﴿أن نأكل﴾؛ إذ ليس غرضهم من الأكل دفع الجوع؛ بل الغرض التشرّف بأكل شيء نازل من السماء. و(ثانيها) إرادتهم الاطمئنان لقلوبهم بكمال قدرة الحقّ سبحانه وإن كانوا مؤمنين به من قبل، إذ إنّ انضمام علم المشاهدة إلى العلم الاستدلالي يوجب ازدياد الطمأنينة وقوة اليقين وهو كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ولكن ليطمئنّ قلبي﴾، ولا يخفى أنّ الدليل الحسيّ أظهر في النفس وأعمق أثراً؛ لما أنّ النفوس بالمحسوس آنس. و(ثالثها) وهو مترتّب على اطمئنان قلوبهم، وهو علمهم علماً يقينياً لايحوم حوله شائبة شبهة أصلاً بأنّه عليه السلام قد صدقهم في دعوى النبوة وأنّ ما جاء به حقٌّ وصدق. و(رابعها) إرادتهم أن يكونوا على هذه المعجزة من الشاهدين، أي يشهدون عليها عند الذين لم يحضروها من بني إسرائيل؛ ليزداد المؤمنون منهم بشهادتهم طمأنينة ويقيناً؛ ويؤمن بسببها كفارهم، وبذلك تتحقّق المصلحة-أيضاً- لمن بعدهم بشهادتهم فتقوم الحجّة ويتّضح البرهان[2].

---

(١) سورة المائدة: الآية (١١٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري ٧/٨٥؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ١٢/١٣٠-١٣١؛ تفسير ابن =

وهكذا ببيانهم هذا لمقاصد سؤالهم إنزال مائدة من السماء يتّضح جلياً أنّها كلّها درجات من الفضل الذي يرغب فيه أمثالهم من أهل الإيمان، وأنّها علامات لصدقهم وإخلاصهم في الرغبة طلباً لزيادة الإيمان واليقين. ومن أجل هذا فإنّه لّما عرف عيسى عليه السلام مقاصدهم الحسنة هذه لبّى مطلبهم بدعاء الله إيّاه، وهو ما سأفصّل فيه القول بالفصل القادم إن شاء الله تعالى.

● فوائد ولطائف:

الأولى: ذكر أبو حيّان – صاحب البحر المحيط – كلاماً رائعاً في مجيء كلام الحواريين بذكر أسباب سؤالهم بترتيب لطيف إذ قال رحمه الله تعالى: "وأتت هذه المعاطيف مرتّبة ترتيباً لطيفاً، وذلك أنّهم لا يأكلون منها إلا بعد معاينة نزولها فيجتمع على العلم بها حاسّة الرؤية وحاسّة الذوق، فبذلك يزول عن القلب قلق الاضطراب ويسكن إلى ما عاينه الإنسان وذاقه، وباطمئنان القلب يحصل العلم الضروري بصدق من كانت المعجزة على يديه إذ جاءت طبق ما سأل وسألوا هذا المعجز العظيم؛ لأنّ تأثيره في العالم العلويّ بدعاء من هو في العالم الأرضي أقوى وأعزب[1] من تأثير من هو في العالم الأرضي في عالمه الأرضي، ألا ترى أنّ من أعظم معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن وانشقاق القمر وهما من العالم العلويّ، وإذا حصل عندهم العلم الضروري بصدق عيسى شهدوا شهادة يقين لا يختلج بها ظنّ ولا شكّ ولا وهم"[2].

= جزي ص١٧٠؛ تفسير البيضاوي ١٧٥/٢؛ تفسير أبي السعود ٩٧/٣-٩٨؛ تفسير الآلوسي٦٠/٧؛ حاشية الصاوي على الجلالين ٣١٥/٢؛ محاسن التأويل للقاسمي ٤٣١/٦؛ تفسير السعدي ٣٦٤/٢؛ التحرير والتنوير لابن عاشور ١٠٦/٧-١٠٧.

(١) أعزب ههنا بمعنى أبعد، والمراد أي أبعد أثراً. (انظر: لسان العرب لابن منظور ٥٩٧/١).

(٢) البحر المحيط لأبي حيان: ٥٥/٤.

الثانية: إنّ الحواريين– في إجابتهم لعيسى عليه السلام – قد تحلّوا بأدب من آداب الحوار مع نبيّهم، كما تأدّبوا معه من قبل في سؤالهم، فهم – ههنا– أرادوا ببيانهم هذا أن يطمئنوا نفسه ويُذهبوا ما حلّ بها من شعور الاستعظام والقلق بسبب سؤالهم، فجاء بيانهم واضحاً صريحاً مبعداً لهم عن أي شبهة أوشك في قدرة الله تعالى وصدق النبوّة.. وهذا بلا ريب هو شأن الصادقين الأتقياء مع أنبيائهم ودعاتهم إلى الخير.

الثالثة: إنّ المطلوب من المؤمن دفع ما قد يُتوهّم في شأنه من شبهة في دينه، وهو مما أشار إليه جواب الحواريين لدفع ما توهّمه عيسى عليه السلام في شأنهم.

الرابعة: إنّ الحواريين كانوا على درجة عالية من الوعي والفقه في الدعوة إلى الله تعالى؛ إذ إنّـــهم لم ينظروا في مقاصدهم لإنـــزال المائدة إلى مصالحهم الذاتية مما يؤول إليه حالهم من زيادة الإيمان والطمأنينة واليقين؛ بل نظروا كذلك إلى حال غيرهم من بني إسرائيل الذين لم يحضروا ويشاهدوا هذه المعجزة، فجعلوا من مقاصدهم الشهادة عليها عندهم حتى يزداد مؤمنهم إيماناً ويقيناً ويؤمن بسببها كفارهم، وذلك قولهم ﴿ونكون عليها من الشَّاهدين﴾. وبهذا الفقه الدعوي من قِبل الحواريين تظهر صورة رائعة يستفيد منها كلّ داعية إلى الله تعالى في واجب التبليغ والاهتمام والحرص على أبناء الأمّة كافّة بالنّظر إلى مصالحهم الإيمانيّة وما يؤول إليه حالهم في توحيد الله تعالى والقيام بأمر دينه.

الخامسة: إنّ في تقديم الجار والمجرور بقوله تعالى: ﴿ونكون عليها من الشَّاهدين﴾ اهتماماً بشهادتـــهم عليها مع رعاية الفاصلة [1].

وبهذه الفوائد واللطائف يتمّ الحديث عن هذا المبحث وبه تمام الفصل الأول ولله الحمد والمنّة.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ١٠٧/٧.

الفصل الثاني:

دعاء عيسى عليه السلام وإجابة الله تعالى له

تقديم:

أتحدّث في هذا الفصل عن دعاء عيسى عليه السلام ربّه عزّوجلّ في سؤاله إنـزال مائدة من السماء وما كان من إجابة الله تعالى له في ذلك، وهو ما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿قال عيسى ابنُ مريمَ اللّهمّ ربّنا أنزلْ علينا مائدةً من السّماء تكون لنا عِيداً لأوّلنا وآخرنا وآيةً منك وارزُقنا وأنتَ خيرُ الرّازقين. قال الله إنّي مُنزّلها عليكم فمَن يكفُرْ بعدُ منكم فإنّي أعذّبه عذاباً لا أعذّبه أحداً من العالمين﴾ (١).

وسأبيّن هذا الدعاء وتلكم الإجابة في مبحثين اثنين على ما يلي:

المبحث الأول: دعاء عيسى عليه السلام ربّه عزّ وجلّ

لـمّا رأى عيسى–عليه السلام– وعلم يقيناً بما ذكره الحواريّون من أسباب طلبهم إنـزال المائدة أنّ لهم مقصداً صحيحاً وغرضاً صالحاً وأنّهم لايريدون تعجيزاً ولا تجربة؛ ومن ثمّ أراد أن يلزمهم الحجة.. لـمّا كان الأمر كذلك أقبل–عليه السلام– على الله تعالى يدعوه بما طلبوا: ﴿اللّهمّ ربّنا أنزلْ علينا مائدةً من السّماء تكون لنا عِيداً لأوّلنا وآخرنا وآيةً منك وارزقنا وأنتَ خير الرّازقين﴾. ويظهر للمتأمّل في هذا الدعاء أنّه عليه السلام كان في غاية الضراعة والابتهال إلى الله تعالى والمبالغة في التوجّه إليه واستدعائه والإقبال عليه؛ إذ إنّه كرّر نداءه لله مرّتين في قوله ﴿اللّهمّ ربّنا﴾.. ناداه مرّة أولى باسم الذات والجلالة الجامع لمعنى الألوهية والقدرة والحكمة والرّحمة وغير ذلك من الكمالات الإلهية فقال:

(١) سورة المائدة: الآيتان (١١٤ – ١١٥).

﴿اللّهمّ﴾ ومعناه يا الله، ثمّ ناداه مرة ثانية بوصف الربوبيّة الدالّ على معنى الملك والتدبير والتربية والإحسان فقال: ﴿ربّنا﴾، فاجتمع في ندائه لله تعالى ابتداءً دواعي القبول والإجابة منه سبحانه بألوهيته وربوبيته لخلقه وعباده. وإنّما كان منه ذلك – عليه السلام – استعطافاً لله عزّ وجلّ حتى يجيب دعاءه في تحقيق ما طلبه الحواريّون، مع ما فيه من تعظيم الله وتحقيق عبوديته[1].

هذا ولم يقتصر عيسى– عليه السلام – في دعائه الله تعالى بإنــزال مائدة من السماء على ما طلبه الحواريّون؛ بل قدّم في دعائه ما هو زيادة وإضافة على ما طلبوه فقال: ﴿تكون لنا عيداً لأوّلنا وآخرنا﴾، فهو يرجو من الله عزّ وجلّ أن يكون يوم نزولها عيداً وموسماً لأهل زمانهم ولمن يجيء بعدهم من النصارى، وذلك حتى يُتذكّر به هذه الآية العظيمة فتُحفظ ولا تُنسى على مرور الأوقات وتكرّر السنين والأعوام، كما جعل الله تعالى أعياد المسلمين ومناسكهم مذكّرة لآياته ومنبّهة على سنن المرسلين وطرقهم القويمة ومُظهرة لفضله وإحسانه عليهم[2]، ثمّ ثنّى بقوله ﴿وآية منك﴾ أي دلالة وعلامة واضحة وحجة قاطعة على كمال قدرتك وصدق وعدك بإجابتك دعوتي وعلى صحة نبوّتي وإرسالي بأمرك ودينك[3].

وبعد أن سأل عيسى –عليه السلام– بدعائه ما سأل من أمر الدين بشأن إنــزال المائدة ختم دعاءه بما يحقّق النفع الدنيوي منها فقال: ﴿وارزقنا وأنت خير

(١) انظر: تفسير أبي السعود ٩٨/٣؛ تفسير الآلوسي ٦٠/٧؛ محاسن التأويل للقاسمي ٤٣٢/٦؛ تفسير المنار ٢٥٢/٧–٢٥٣؛ التحرير والتنوير لابن عاشور ١٠٨/٧.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ١٢٠/٢؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ١٣١/١٢؛ تفسير أبي السعود ٩٨/٣؛ تفسير الآلوسي ٦٠/٧؛ حاشية الصاوي على الجلالين ٣١٥/٢؛ فتح القدير للشوكاني ٩٧/٢؛ تفسير السعدي ٣٦٥/٢.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ١٢٠/٢؛ تفسير أبي السعود ٩٨/٣؛ تفسير الآلوسي ٦٢/٧؛ فتح القدير للشوكاني ٩٨/٢؛ محاسن التأويل للقاسمي ٤٣٢/٦؛ تفسير المنار ٢٥٣/٧.

الرّازقين﴾، وهو تعبير عمّا طلبه الحواريون بقولهم ﴿نريد أن نأكل منها﴾، وأتبع كلامه هذا بقوله: ﴿وأنت خير الرازقين﴾، وهو تذييل جارٍ مجرى التعليل أو تتميم لما قبله على وجه الاستدلال، أي هو سبحانه خير من يرزق؛ لأنه خالق الأرزاق ومعطيها بلا عِوَض، وأمّا غيره فهو رازق باعتبار أنّه سبب في الرزق وجارٍ على يديه[1]. وفي هذا الثناء مزيد تضرّع وتذلّل لله تعالى.

● فوائد ولطائف:

الأولى: إنّ في نسبة عيسى –عليه السلام– إلى أمّه في هذا المقام (مقام الدعاء لله) دلالة على مزيد تذلّله بين يدي الله تعالى[2].

الثانية: ذكر أبو السعود في كلامه ما يؤيّد ما ذكرته آنفاً حول صدق إيمان الحواريين حال سؤالهم عيسى عليه السلام إنزال المائدة مستنداً إلى ما كان في دعائه عليه السلام إذ قال: "وفي إقباله عليه السلام على الدعاء بتكرير النداء (اللهم– ربنا) المنبئ عن كمال الضرّاعة والابتهال وزيادته ما لم يخطر ببال السائلين من الأمور الداعية إلى الإجابة والقبول دلالة واضحة على أنّهم كانوا مؤمنين وأنّ سؤالهم كان لتحصيل الطمأنينة كما في قول إبراهيم عليه السلام ﴿ربّ أرني كيف تحي الموتى﴾ وإلاّ لما قُبل اعتذارهم بما ذكروه ولما أضاف إليه من عنده ما يؤكّده ويقرّبه إلى القبول"[3]. وهذا الذي ذكره أبو السعود استنتاج لطيف ودقيق.

الثالثة: في معنى (اللهمّ) قال ابن منظور في لسان العرب: " قال أبو إسحاق: وقال الخليل وسيبويه وجميع النحويين الموثوق بعلمهم: اللهمّ بمعنى يا

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود ٣/٩٨؛ تفسير البيضاوي ٢/١٧٥؛ محاسن التأويل للقاسمي ٦/٤٣٣؛ حاشية الصاوي على الجلالين ١/٣١٥.

(٢) انظر: تفسير المهايمي ١/٢٠٦.

(٣) تفسير أبي السعود: ٣/٩٨.

الله، وإنّ الميم المشدّدة عوض من (يا)، لأنّهم لم يجدوا (يا) مع هذه الميم في كلمة واحدة، ووجدوا اسم الله مستعملاً بـ(يا) إذا لم يذكروا الميم في آخر الكلمة، فعلموا أنّ الميم في آخر الكلمة بمنزلة (يا) في أوّلها، والضمّة التي في الهاء هي ضمّة الاسم المنادى المفرد، والميم مفتوحة لسكونها وسكون الميم قبلها"[1].

الرابعة: إنّ في تقديم الظرف (علينا) على قوله (مائدة من السماء) في قوله ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ اهتماماً بالمقدّم وتشويقاً إلى المؤخّر[2].

الخامسة: إنّ تذكير الأمم بنعم الله تعالى وفضله وإحسانه هو من غايات الأنبياء ومقاصدهم التي يسعون في إظهارها وتعميقها عند أممهم؛ لـما في ذلك من حثّهم ودفعهم المتكرر والمتواصل – عبر كلّ زمان وجيل – إلى شكر المنعم سبحانه والاعتراف بفضله ومنّته وإحسانه توحيداً له وعبادة والتزاماً بشرعه ودينه. وهذا ما يلمسه المتأمّل في قول عيسى عليه السلام: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ عند سؤاله المائدة من الله تعالى.

السادسة: إنّ في الإتيان بـ (لنا) أولاً في قوله ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ إفادة للحصر والاختصاص، أي لهم لا لغيرهم من قومه[3].

السابعة: أسند العيد إلى المائدة في قوله ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ لأنّ شرف اليوم مستعار من شرفها[4].

الثامنة: وفي طلب أن يكون هذا اليوم عيداً إشارة إلى أنّ ابتهاج الروح بالنعمة لا من حيث إنّها نعمة؛ بل من حيث إنّها صادرة عن المنعم سبحانه[5].

---

(١) لسان العرب لابن منظور: ١٣/٤٧٠.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود ٣/٩٨؛ تفسير الآلوسي ٧/٦٠.

(٣) انظر: تفسير الآلوسي ٧/٦١؛ تفسير المنار ٧/٢٥٣.

(٤) انظر: تفسير أبي السعود ٣/٩٨.

(٥) انظر: تفسير النيسابوري (غرائب القرآن) ٧/٥٥.

التاسعة: يلاحظ في دعاء عيسى -عليه السلام- بقوله ﴿وآية منك﴾ أنه نصّ على قوله ﴿منك﴾ مع العلم بأنّ كلّ شيء منه تعالى ولاسيما الآيات؛ ذلك لينصّ على أنّ الآيات إنّما تكون من الله وحده، أو لينصّ على أن تكون المائدة من لدنه تعالى بغير واسطة منه عليه السلام تشبه السبب كالآيات السابقة التي جاء بها[1].

العاشرة: مّما يلاحظه المتأمّل أنّ عيسى -عليه السلام- كان في دعائه لله تعالى في غاية السموّ النفسي والأدب البشري مع الحقّ سبحانه، إذ إنّه قدّم في طلب المائدة ما يحقّق المصالح المرتبطة بالدين فقال ﴿تكون لنا عيداً لأوّلنا وآخرنا وآية منك﴾؛ ثمّ ذكر بعدها ما يكون من مصلحة الدنيا ونفعها بالرزق فقال ﴿وارزقنا وأنت خير الرّازقين﴾، هذا مع انتقاله من الرزق إلى الرزاق ومن الخلق إلى الخالق وهو عروج مرّة أخرى وارتقاء في الكلام، فلم يقتصر على طلب النفع الدنيوي دون الثناء على واهبه عزّ وجلّ.. ولا ريب أنّ هذا غاية في الفقه والسموّ والأدب.. وفي مقابل ذلك يجد المتأمّل أنّ الحواريين في طلبهم قدّموا الأغراض الدنيوية ﴿نريد أن نأكل منها﴾ وأخّروا الأغراض الدينية[2]؛ فظهر بذلك عظم مقام النبوّة وفضل الأنبياء على سائر الناس ولله الحمد والمنّة.

ولا يخفى أنّ في هذه الطريقة النبوية في الدعاء إرشاداً إلى أدب من آدابه وهو تقديم أمر الدين على أمر الدنيا في الطلب، مع الثناء على الله تعالى بما يليق بجلاله وكماله.

وبهذه الفوائد واللطائف يتمّ الحديث عن هذا المبحث في دعاء عيسى عليه السلام ولله الحمد والمنّة.

---

(١) انظر: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ٧/٢٥٣.

(٢) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ١٢/١٣٢؛ تفسير النيسابوري ٧/٥٥.

المبحث الثاني: إجابة الله تعالى دعاء عيسى عليه السلام

وتأتي قصة المائدة إلى ختامها ببيان استجابة الله تعالى لدعاء نبيّه ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام.. استجابة كاملة فضلاً منه سبحانه على عباده؛ وتكريماً لنبيّه وتصديقاً.. وهي استجابة –أيضاً– ولكن مع تحذير ووعيد وتهديد من الكفر بعد الإيمان.. وذلك كلّه هو ما جاء في قوله عزّ وجلّ: ﴿قال الله إنّي مُنَزِّلُها عليكم فمَن يَكفر بعد منكم فإنّي أعذّبه عذاباً لا أعذّبه أحداً من العالمين﴾ [1].

هذا ولقد جاءت هذه الاستجابة الإلهية مصدّرة بجملة التأكيد (إنّي)؛ وجُعل خبرها اسماً وهو (منـزّلها)؛ تحقيقاً للوعد وإيذاناً بأنّه تعالى منجزٌ له لا محالة من غير صارف يثنيه ولا مانع يلويه[2]؛ وأنّه تعالى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ [3].

ومن بعدُ يأتي التحذير من الكفر بعد الإيمان ﴿فمن يكفر بعد منكم فإنّي أعذّبه عذاباً لا أعذّبه أحداً من العالمين﴾ والإتيان بالفاء في ابتدائه للتفريع عن إجابة رغبتهم إعلاماً بأهمية الإيمان وعِظم شأنه عند الله تعالى، وبذلك جُعل جزاء إجابته إيّاهم أن لا يعودوا إلى الكفر بعد إيمانهم أبداً، فإن عادوا عُذّبوا عذاباً أشدّ من عذاب سائر الكفار؛ وذلك لأنّه قد تعاضد لديهم واجتمع عندهم دليل العقل ودليل الحسّ فلم يبق لهم أدنى عذر[4].

---

(١) سورة المائدة: الآية (١١٥).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود ٩٩/٣؛ تفسير الآلوسي ٦٢/٧؛ التحرير والتنوير لابن عاشور ١١١/٧.

(٣) سورة يس: الآية (٨٢).

(٤) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ١١١/٧.

ولا يخفى ما لهذا الأسلوب في التحذير من التهديد والترهيب البالغين أقصى مراتبهما، ولذلك قال الشوكاني في تفسيره: "في هذا من التهديد والترهيب ما لا يقادر قدره"[1].

وبهذا التحذير الإلهي الذي يحمل في طيّاته التهديد والوعيد يسدل الستار على هذه القصة الكريمة في كتاب الله تعالى؛ وإذ ليس في كتاب الله تعالى موضع آخر يذكرها. وتوقّفت قصّة المائدة عند هذا المقدار وطوي خبرُ ما حدث بعد نزولها، ولله تعالى في ذلك حكمة قد يُدرك المتأمّل بعضها، من ذلك أنّ هذا القدر هو المراد من هذه القصة؛ فلا أثر لما جرى من بعد؛ وقد تحققت الفائدة بما ذُكِر وتبيّن الغرض، من العبرة بحال إيمان الحواريين وتعلّقهم بما يزيدهم يقيناً واعتقاداً، ويقرّبهم إلى ربّهم وتحصيلهم مرتبة الشهادة، وبما دلّت على ضراعة عيسى– عليه السلام– الدالّة على كمال عبوديّته لله، وعلى كرامته عنده إذ أجاب دعوته، وعلى سعة القدرة الإلهية.. إلى غير ذلك مما حوته ودلّت عليه وأشارت إليه من العبر والفوائد، وأمّا تفصيل ما حوته المائدة وما دار بينهم عند نزولها فلا عبرة فيه[2]. والله أعلم بمراده.

● فوائد ولطائف:

الأولى: إنّ في استجابة الله تعالى بإنـــزال المائدة على الحواريين ابتلاءً وتمحيصاً لهم في تحقيق إيمانهم والثبات عليه، وهذه هي سنة الله عزّوجلّ في عباده المؤمنين عبر الأزمنة والأجيال. قال الحقّ سبحانه: ﴿ولنبلونّكم حتّى نعلم المجاهدين منكم والصّابرين ونبلوا أخباركم﴾ [3]. ولا يخفى –كذلك– أنّ في الابتلاء بما ينـــزل

(١) فتح القدير للشوكاني: ٢/٩٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ٧/١١١.

(٣) سورة محمد صلى الله عليه وسلم: الآية (٣١).

من آيات الله تعالى تنبيهاً للكفرة حتى يؤمنوا ويرجعوا عن كفرهم.

الثانية: إنّ في وعيد الله تعالى لمن يكفر بعد إيمانه إشارة إلى تعظيم أمر الإيمان وخطر الردّة عنه، وخصوصاً فيمن طلب اليقين وزيادته؛ فإنه كلّما كان فضل الإنسان أكبر كان الوعيد والتهديد بشأنه أعظم، ولذلك قال الله ههنا بشأن الحواريين ﴿فمن يكفر بعد منكم فإنّي أعذّبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين﴾.

الثالثة: لا حرج في طلب المؤمن ما يزيد من إيمانه ويقينه، وإلا لما أجاب الله تعالى إبراهيم –عليه السلام– حين قال له ﴿ربّ أرني كيف تحي الموتى﴾، ولَمَا أجاب عيسى عليه السلام في طلب الحواريين إنـــزالَ مائدة من السماء، فزيادة الإيمان واليقين أمر مطلوب ومراد على كلّ حال.

الرابعة: إنّ في مجيء جواب الله تعالى لنبيّه عيسى –عليه السلام– ﴿قال الله إنّي منزّلها عليكم.. ﴾ مفصولاً عن كلامه السابق وبدون واو العطف جرياً على طريقة المحاورة في الكلام[(١)].

الخامسة: قرأ نافع وابن عامر وعاصم (مُنَزِّلُها) بالتشديد، اسم فاعل من نَزّل، وقرأ الباقون بالتخفيف (مُنْزِلُها) اسم فاعل من أنزل، وهما لغتان؛ غير أنّ التشديد يفيد معنى التكثير[(٢)]. وللمتأمّل في هذه القراءة وقفة لطيفة، حيث إنّ ورود الإجابة منه تعالى بهذه الصيغة، أي صيغة التفعيل المنبئة عن التكثير مع كون الدعاء من عيسى عليه السلام بصيغة الإفعال ﴿اللّهم ربّنا أنزل﴾ فيه إظهار لكمال اللطف والإحسان الإلهي، كما في قوله تعالى ﴿قل الله ينجيكم منها ومن كلّ كرب﴾ [(٣)]، بعد

---

(١) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ١١١/٧.

(٢) انظر: النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢٥٦/٢؛ الكشف عن وجـــوه القـــراءات السبع لمكي ٤٢٣/١.

(٣) سورة الأنعام: الآية (٦٤).

قوله ﴿لئن أنجانا من هذه..﴾ الآية[1]. هذا مع ما في الصيغة من مراعاة ما وقع في عبارة الحواريين السائلين ﴿أن ينزّل علينا مائدة من السّماء﴾[2].

السادسة: التنوين في قوله ﴿عذاباً﴾ للتعظيم، أي عذاباً عظيماً[3].

السابعة: الضمير المنصوب في قوله ﴿لا أعذّبه﴾ ضمير المصدر، فهو في موضع المفعول المطلق وليس مفعولاً به، أي لا أعذب أحداً من العالمين ذلك العذاب، أي مثل ذلك العذاب[4].

مطلب: هل نزلت المائدة أم لا؟

لـمّا لم يُذكر في القرآن الكريم تتمّة قصّة المائدة فقد جاء عن البعض من أهل العلم قولهم أنّ المائدة لم تنـزل، من ذلك ما رواه ابن جرير الطبري بسنده إلى قتادة قال: كان الحسن يقول: لـمّا قيل لهم ﴿فمن يكفر بعد منكم فإنّي أعذّبه عذاباً..﴾ قالوا: لا حاجة لنا فيها فلم تنـزل. وروى كذلك بسنده إلى منصور بن زاذان عن الحسن أيضاً أنّـها لم تنـزل. وروى أيضاً بسنده عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد قال: هو مثل ضربه الله ولم ينـزل شيء[5]. أي مثل ضربه الله لخلقه نهياً لهم عن مسألة الآيات لأنبيائه.

هذا وقد أورد الحافظ ابن كثير – رحمه الله – هذه الروايات وغيرها وقال بعدها: "وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن، وقد يتقوّى ذلك بأنّ خبر

---

(١) سورة الأنعام: الآية (٦٣).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود ٣/٩٩؛ تفسير الألوسي ٧/٦٢.

(٣) انظر: تفسير الآلوسي ٧/٦٢.

(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٧/١١١.

(٥) انظر: تفسير الطبري ٧/٨٧.

المائدة لا يعرفه النصارى وليس هو في كتابهم، و لو كانت قد نزلت لكان ذلك مما توفّر الدواعي على نقله وكان يكون موجوداً في كتابهم متواتراً، ولا أقلّ من الآحاد والله أعلم"[١].

وأقول: إنّه قد جاءت روايات أخرى بعكس ما رُوي عن مجاهد والحسن وقتادة، أي بأنّ المائدة قد نــزلت، وقد أوردها ابن جرير الطبري في تفسيره ومن بعده ابن كثير وغيره، وقال عنها ابن كثير بعد إيرادها: "وكلّ هذه الآثار دالّة على أنّ المائدة نــزلت على بني إسرائيل أيّام عيسى بن مريم إجابة من الله لدعوته، كما دلّ على ذلك ظاهر السياق من القرآن العظيم ﴿قال الله إنّي منزّلها عليكم﴾. الآية"[٢].

ومن أحسن ما روي من هذه الآثار في ذلك ما أخرجه الترمذي في جامعه بكتاب التفسير عن الحسن بن قَزَعة[٣] بسنده إلى عمّار بن ياسر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً، وأمروا أن لا يخونوا ولا يدّخروا لغد، فخانوا وادّخروا ورفعوا لغد، فمُسخوا قردة وخنازير". ثمّ قال عنه الترمذيّ: "هذا حديث غريب، ورواه أبو عاصم وغير واحد عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن خِلاس[٤] عن عمّار موقوفاً، ولا نعرفه مرفوعاً

---

(١) تفسير ابن كثير: ١٢٣/٢.

(٢) المرجع السابق: ١٢٣/٢.

(٣) الحسن بن قزعة بن عبيد الهاشمي، مولاهم البصري، روى له الترمذي والنسائي وابن ماجة وغيرهم. قال يعقوب بن شيبة وأبو حاتم: صدوق، وقال النسائي: لا بأس بسه. قـال في موضع آخر: صالح، وذكره ابن حبّان في الثقات، وحكم عليه ابن حجر في تقريبه بأنّـه صدوق، مات قريباً من سنة ٢٥٠هـ. (انظر: تهذيب التهـذيب لابـن حجـر ٢٧٣/٢؛ تقريب التهذيب لابن حجر ص ١٦٣).

(٤) خلاس بن عمرو الهجَري، البصري، تابعي ثقة، وكان يرسل، وكان على شُـرَطة علـي =

إلا من حديث الحسن بن قزعة، ثم قال الترمذي أيضاً: حدثنا حميد بن مسعدة أخبرنا سفيان بن حبيب عن سعيد بن أبي عروبة[1] نحوه ولم يرفعه. وقال: وهذا أصحّ من حديث الحسن بن قزعة، ولا نعلم للحديث المرفوع أصلاً"[2].

ولذلك رجع ابن كثير في آخر كلامه وقال: "ولكنّ الذي عليه الجمهور أنها نزلت وهو الذي اختاره ابن جرير..إلخ"[3].

أقول: وبغضّ النظر عن رواية الترمذي وغيرها في إثبات نزول المائدة فإنّ في قول الله عزّ وجلّ: ﴿إنّي منزّلها عليكم﴾ دليلاً كافياً في أنّها نزلت بلا شكّ؛ لأنه سبحانه أخبر مؤكداً أنّه منـــزلها ولا خُلْف لوعد الله تعالى وخبره، وهو منجز أمره لا محالة. وما روي عن بعض السلف كالحسن وغيره من عدم إنزالها وإن كانت الأسانيد الموصلة إليهم صحيحة؛ فإنّه قد يكون كلامهم مستنداً على ما نقل إليهم من الإسرائيليات وهي كثيرة في هذا الباب، وهذه الإسرائيليات ما دام أنّها مخالفة لما ورد من القرآن الكريم فإنّها مردودة، وإن كان كلامهم مستنداً إلى غير ذلك من خبر وصل إليهم عن رسول الله ﷺ بهذا الأمر الغيبي –

= رضي الله عنه، وقد صحّ أنه سمع من عمّار رضي الله عنه، مات قبيل المائة من الهجرة. (انظر: تهذيب التهذيب ٣/١٥٢-١٥٣؛ تقريب التهذيب ص ١٩٧).

(١) سعيد بن أبي عَروبة: مِهران اليشكُري مولاهم، ابو النضر البصري، ثقة حافظ له تصانيف، كثير التدليس واختلط، وكان من أثبت الناس في قتادة، مات سنة ١٥٦هـ وقيل ١٥٧هـ. (انظر: تقريب التهذيب ص ٢٣٩؛ تهذيب التهذيب ٤/٥٦/٥٧).

(٢) الجامع الصحيح للترمذي: (٦) باب كتاب تفسير القرآن، حديث (٣٠٦١) ٥/٢٦٠؛ تحفة الأحوذي للمباركفوري ٨/٤٣٤، حديث (٥٠٠٥٤-٥٠٠٥٥)، وانظر: الدرّ المنثور في التفسير المأثور للسيوطي وفيه قوله: وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من وجه آخر عن عمار موقوفاً مثله. وقال الترمذي: الوقف أصح. ٣/٢٣٥).

(٣) تفسير ابن كثير: ٢/١٢٣.

ولا خبر بذلك صحيح – فإنّه لايقوى أمام النصّ القرآني المتواتر الصريح. ثم إنّ عدم وجود خبر المائدة في كتب النصارى ليس بدليل ولا بحجة على عدم نزولها، إذ كم حرّف النصارى في كتبهم وأنا جيلهم، وكم من الأخبار والأحداث والأحوال أهملوها ولم يوردوها أو حذفوها فلا يعوّل على حفظهم البتة.

– وعلى ما ذكرت فإنّ جمهور المفسرين اتفقوا على أنّ المائدة نـزلت وفي أولهم عمدتهم ابن جرير الطبري رحمه الله كما سبقت الإشارة إلى ذلك حيث قال: "والصواب من القول عندنا في ذلك أن يقال أنّ الله تعالى أنـزل المائدة على الذين سألوا عيسى مسألته ذلك ربّه، وإنّما قلنا ذلك للخبر الذي روينا بذلك عن رسول الله ﷺ وأصحابه وأهل التأويل من بعدهم غير من انفرد بما ذكرنا عنه، وبعد فإن الله لا يخلف وعده ولا يقع في خبره الخلف، وقد قال الله تعالى مخبراً في كتابه عن إجابة نبيه عيسى –عليه السلام – حين سأله ما سأله من ذلك ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وغير جائز أن يقول تعالى ذكره ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ ثم لا ينـزّلها؛ لأنّ ذلك منه تعالى خبر ولا يكون منه خلاف ما يخبر، ولو جاز أن يقول إني منـزلها عليكم ثمّ لا ينـزلها عليهم جاز أن يقول ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ ثمّ يكفر منهم بعد ذلك فلا يعذبه؛ فلا يكون لوعده ولا لوعيده حقيقة ولا صحّة وغير جائز أن يوصف ربنا تعالى بذلك"[1]. هذا وقد وافقه ابن كثير كما مرّ ذكره، وبمثله قال الماوردي والقرطبي وابن الجوزي وأبو حيان والفخر الرازي وأبو السعود وغيرهم[2].

وأذكر من أقوالهم قولين أحدهما: قول الفخر الرازي إذ قال: "قال

(١) تفسير ابن جرير الطبري: ٨٨/٧.

(٢) انظر: تفسير الماوردي ٥٠١/١؛ تفسير القرطبي ٣٦٩/٦؛ زاد المسير لابن الجوزي ٤٥٩/٣؛ محاسن التأويل للقاسمي: ٤٢٢٣/٦؛ فتح القدير للشوكاني ٩٨/٢.

الجمهور الأعظم من المفسرين: أنها نزلت لقوله تعالى ﴿إنّي منزّلها عليكم﴾ وهذا وعد بالإنزال جزماً من غير تعليق على شرط، فوجب حصول هذا النزول"[1].

وثانيهما: قول أبي السعود العمادي إذ قال: "وهو الصحيح الذي عليه جماهير الأمّة ومشاهير الأئمة"[2].

ويكفي بما ذكرت من كلام المفسرين وبما رددت على من روي عنه أنها لم تنــزل مؤيداً للقول الصحيح بنــزولها. ولله الحمد والمنّة.

مطلب: تفاصيل ما حوته المائدة وموقف الحواريين بعد نزولها

ليس في ذكر تفاصيل ما حوته المائدة وما دار بين الحواريين وبني إسرائيل عند نــزولها أثر فيما أراده الله تعالى من إيراد القصة في القرآن الكريم من حيث العبرة والفائدة – كما بينت آنفاً – لذا لم يذكر الله تعالى في القرآن ذلك، وقد كثرت الروايات من قبل بعض المفسرين بأخبار واهية الأسانيد ومعتمدها على كثير من الإسرائيليات، وقد ذكرت فيما قبل أنّ رواية الترمذي هي أحسن ما ذكر في هذا الشأن وقد سبق تخريجها آنفاً[3]، ولكني أحبّ أن أنبّه ههنا على أمرين إن صحت تلك الرواية وهما ما يلي:

الأول: لا مانع أن يكون ما حوته المائدة خبزاً ولحماً كما جاء في الرواية، إذ إنّ ذلك لا يعارض ما جاء في القرآن الكريم.

الثاني: ينبغي أن يُعْلَمَ بأنّ الحواريين ما زادهم نــزول المائدة إلا يقيناً وإيماناً؛ وما ورد في الرواية أنــه لما نــزلت المائدة وأمروا ألا يخونوا ولا

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي: ١٢/١٣٣.

(٢) تفسير أبي السعود: ٣/٩٩.

(٣) انظر تخريج الحديث وكلام الترمذي في الحكم عليه ص ٤١-٤٢.

يدّخروا لغد فخانوا وادّخروا ورفعوا لغد فمسخوا قردة وخنازير، فإنّ هذا يُحْمَلُ على موقف بني إسرائيل من غير الحواريين، لما أنّ هذا الموقف لا يناسب حال الحواريين من الإيمان

كما سبق بيانه آنفاً، ولعلّ القرآن سكت عن بيان موقفهم؛ إذ هم المرادون من القصة لما يُعْرَف بداهة من حالهم في التصديق والإيمان مما جاءت به الآيات القرآنية في هذه السورة وغيرها. والله أعلم.

ولذلك قال ابن عاشور عند بيانه لصحّة قول الجمهور في إنزال المائدة: "وهو الظاهر؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿إنّي منزّلها عليكم﴾ وعد لا يخلف، وليس مشروطاً بشرط، ولكنه معقّب بتحذير من الكفر، وذلك حاصل أثره عند الحواريين وليسوا ممن يخشى العودة إلى الكفر سواء نزلت المائدة أم لم تنـــزل"[1].

وبهذا المطلب يتم الكلام حول هذا المبحث في فصله الثاني وبه أصل إلى ختام الحديث عن قصة المائدة في القرآن الكريم بحقائقها وفوائدها ولله الحمد والمنّة.



(١) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٧/١١١-١١٢.

الخاتمة

الحمد لله تعالى الذي وفّقني بمنّه وفضله وتيسيره على إتمام هذا البحث القرآني الذي عشت أيامه أطالع قصّته بآياتها وكلماتها وحروفها متأمّلاً فيها ومدقّقاً،طالباً لحقائقها وفوائدها، فله الحمد سبحانه – كما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه – في الابتداء والانتهاء وفي كلّ وقتٍ وحال. وبعد:

فقصّة المائدة التي أخبر الله تعالى عنها في أربع آيات كريمات بسورة سمّيت باسمها لتميّزها من حيث غرابتها وعظيم إعجازها من بين ما ورد في السورة، ولتبقى علماً على السورة فتذكر بذكرها حيثما ذكرت، فتكون محلاً للنظر والتأمّل طلباً لعبرها وفوائدها على مرّ الأزمنة والأجيال.. قصّة من قصص الإعجاز الإلهي وسعة القدرة الربّانية التي لا تحدّها حدود ولا نهايات.. قصّة من قصص الأنبياء مع حواريّيهم وخلصائهم.. قصّة من قصص الدعوة إلى الله تعالى يُستخلص من مواقفها صور الثبات والإخلاص وطلب زيادة الإيمان واليقين، وعمق الصلة بين الداعيّة والمدعوّين.. قصّة يظهر الله تعالى فيها تأييده ونصرته لعباده المرسلين تكريماً لهم وتثبيتاً لأتباعهم وتنبيهاً لمعارضيهم وتحذيراً.

- هذا ولقد أثبتُّ أنّ الحواريّين كانوا من المؤمنين حين سألوا عيسى عليه السلام أن يسأل ربّه إنزال مائدة من السماء، وإنّما سألوها طلباً لزيادة الإيمان واليقين ورغبة في اطمئنان قلوبهم واعتلاء درجات الصّدّيقين والشهادة عليها نظراً منهم لمصالح غيرهم من بني إسرائيل – مؤمنهم وكافرهم – فيزداد المؤمن منهم إيماناً ويرجع كافرهم عن كفره بسببها. فلا حرج فيما سألوه كما لم يكن هناك من حرج على الخليل إبراهيم عليه السلام حين سأل ربّه تعالى أن يريه كيف يحيي الموتى مع عظيم إيمانه وقدره، وذلك جمعاً بين النظر والمعاينة..

ولقد تبيّن في سؤالهم لعيسى عليه السلام تعظيمهم لأمر التوحيد وأدبهم الجمّ في خطابه وفي إجابتهم له عند بيان أسباب السؤال. ومن ثمّ فقد أعطوا مثالاً لكلّ مؤمن في دفع ما يُتوهّم من الشُبَه تجاههم؛ مع كمال الأدب ومراعاة حقّ الله عزّوجلّ وحقّ رسوله في بيان صادق وفهم صحيح وصراحة مُطَمْئنَة.

- وفي مقابلة هذا فقد قدّم عيسى عليه السلام مثالاً رائعاً في حرص الأنبياء والرسل وشفقتهم على أصحابهم وخشيتهم من أن يكونوا في موارد ضعف الإيمان لئلا يحلّ بهم عذاب من الله ومؤاخذة في الدنيا والآخرة، ولا ريب أنّ في هذا درساً لكلّ داعية إلى الله تعالى في الحرص على إيمان مدعوّيه وتجنيبهم موارد الضعف والشكّ، ومن ثمّ تربيتهم على الارتقاء بهذا الإيمان والالتزام بتقوى الله تعالى والسموّ بأفكارهم بما هو لائق بهم.. ومرّة أخرى يعطي عليه السلام موقفاً فريداً في ابتهاله لله سبحانه وتعالى، بأدبه وخشوعه وذلّته وإظهار خضوعه وفقره وإتيانه بما يحقّق إجابة الله لدعائه، مع تقديمه لأمر الدين فيه ونظره إلى مصالحه، فكان عليه السلام بهذا الموقف في غاية السموّ النفسي والأدب البشري مع الحقّ سبحانه، وبه تبيّن فضل مقام النبوة وعظيم حال الأنبياء، ولا ريب أنّ في هذا الموقف الخاشع الفريد إرشاداً للمؤمنين في أدب الدعاء والصلة بربّ العالمين.

- ثم إنّه – عليه السلام – أكّد بقوله في طلب المائدة أنّ تذكير الأمم بنعم الله تعالى وفضله وإحسانه هو من غايات الأنبياء ومقاصدهم التي يسعون في إظهارها وتعميقها عند أممهم، لما يؤديه ذلك من التوجّه إلى المنعم سبحانه بالشكر اعترافاً بفضله وتوحيداً له وعبادة والتزاماً بشرعه.

- هذا ولقد تبيّن بهذه القصة القرآنية الكريمة أسلوب القرآن الكريم

ومنهجه في عرض قصصه من اقتصاره – على ما يذكره فيه – بما يفيد من تجلية الحقائق وإعطاء الفوائد من العبر والدروس للمخاطبين بهذا القرآن في أوّل نـــزوله ولمن بعدهم كلٌّ على حسب حاله وشأنه وموقعه.

- وفي ختام هذه الخاتمة أقول: إنّ ما أظهرته من حقائق هذه القصّة وحقائق أفرادها هو مما وفّقني الله إليه بعد اجتهاد وبحث وتأمّل في آيات هذه القصة وفي غيرها من الآيات التي تساعد على تجليتها وبيانها. وأمّا ما ذكرته من الفوائد والعبر –بتوفيق الله وتيسيره – فهو غيضٌ من فيض علم الله تعالى، وقد يكون لغيري من طلاب العلم إظهار فوائد أخرى من هذه القصة القرآنية يوفقهم الله سبحانه لها، وإنّـــما هو جهد المقلّ ولله الحمد والمنّة. وإنّي أرجو أن تُعنى الدراسات القرآنية بجانب استخراج الفوائد والعبر واللّطائف من القصص القرآني الكريم وتعيد النظر مرّة تلو أخرى طلباً للإفادة والوقوف على ما يُعطي الأمّة ويهبها صحةً في الاعتقاد وقوةً في اليقين ومنهجاً واضحاً مستقيماً في العبادة والسلوك والأخلاق والمعاملات بما يحقّق ما تنشده من الاعتصام بحبل الله تعالى وطلب رضاه، والعزّة لهذا الدين وأهله.

- وأخيراً أسأل الله العظيم ربّ العرش الكريم أن يتقبّل مني بحثي هذا وأن يغفر لي ما كان فيه من خطأ أو نقصان إنّه وليّ ذلك والقادر عليه. وآخر دعواي أن الحمد لله ربّ العالمين. وصلّ اللهم وسلّم وبارك على نبينا وسيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

فهرس المراجع

- القرآن الكريم.

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: أبو السعود: محمد بن محمد العمادي. ٩ج. بيروت – لبنان: دار إحياء التراث العربي.

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني. ١٠ج. ١٣٩٣هـ/١٩٨٣م.

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي. ٥ ج. بيروت: مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع.

- تبصير الرحمن وتيسير المنان: المهايمي، علي بن أحمد بن إبراهيم، الطبعة الثانية. ٢ج. بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: المباركفوري، أبو العلى محمد بن عبد الرحمن. ١٠ج، الطبعة الثالثة – ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

- تفسير ابن جزي الكلبي، محمد بن أحمد. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.

- تفسير البحر المحيط: أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي الغرناطي، الطبعة الثانية. ٨ج. بيروت: دار الفكر، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.

- تفسير التحرير والتنوير: ابن عاشور، محمد الطاهر. ٣٠ج. تونس: الدار التونسية للنشر، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب ١٩٨٤م.

- تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء، إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي. ٤ج. بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٥هـ.

- تفسير المنار: رضا، محمد رشيد، الطبعة الثانية. ١٢ج. بيروت: دار المعرفة

- تفسير النسفي، عبد الله بن أحمد بن محمود. الطبعة الأولى. ٢ج. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م.

- التفسير الواضح، محمد محمود حجازي، ٢ج. بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م.

- تقريب التهذيب: ابن حجر العسقلاني. تحقيق: محمد عوامة. الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م، بيروت – لبنان: دار البشائر الإسلامية.

- تهذيب التهذيب: ابن حجر العسقلاني. الطبعة الأولى. ١٤ج. بيروت – دار الفكر.

- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. تحقيق: محمد زهري النجار. ٧ج. الرياض: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ١٤٠٤هـ.
- جامع البيان في تفسير القرآن: الطبري، محمد بن جرير. ٣٠ ج. بيروت دار المعرفة، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
- الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري. الطبعة الثانية. ٢٠ج. بيروت: دار الكتاب العربي.
- الجواهر الحسان في تفسير القرآن: الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف. ٤ج. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
- حاشية الجمل على تفسير الجلالين (الفتوحات الإلهية): العجيلي الشافعي، سلمان بن عمر، الشهير بالجمل. ٤ ج. بيروت – لبنان: دار إحياء التراث العربي.
- حاشية الصاوي على تفسير الجلالين: الصاوي، أحمد بن محمد. ٤ ج. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- حجة القراءات: ابن زنجلة، أبو زرعة عبد الرحمن بن محمد. حققه وعلّق عليه: سعيد الأفغاني. الطبعة الثانية. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- الحجة للقراء السبعة: أبو علي الحسن بن عبد الغفار الفارسي. تحقيق: بدر الدين قهوجي – بشير جويجاتي، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م، دمشق – بيروت: دار المأمون للتراث.
- الدر المنثور في التفسير المأثور: السيوطي، جلال الدين. ٨ ج. الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م. بيروت – لبنان: دار الفكر.
- روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني: الآلوسي، أبو الفضل، شهاب الدين السيد محمود. ٣٠ ج. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- زاد المسير في علم التفسير: ابن الجوزي، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد. الطبعة الثالثة. ٩ ج. دمشق – بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٤هـ.
- سنن الترمذي: الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة. تحقيق أحمد محمد شاكر – محمد فؤاد عبد الباقي – إبراهيم عطوه عوض. ٥ ج. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان: النيسابوري، نظام الدين بن محمد بن حسين القمّي. تحقيق: إبراهيم عطوة عوض. الطبعة الأولى. ٣٠ ج. مصر: شركة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.
- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: الأنصاري، أبو يحيى زكريا. تحقيق: محمد علي الصابوني. الطبعة الأولى. بيروت: دار القرآن الكريم، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير: الشوكاني، محمد بن علي. تحقيق: عبد

الرحمن عميرة – الطبعة الأولى. ٦ج، مصر: دار الوفاء، ١٤١٥هـ.

- الكشاف عن حقائق التنـزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمد بن عمر. ٤ج. بيروت: دار المعرفة.

- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها: القيسي، أبو محمد مكي بن أبي طالب. تحقيق: محي الدين رمضان، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ. ٢ج. بيروت: مؤسسة الرسالة.

- لباب التأويل في معاني التنزيل: الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي: ٧ج. بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩هـ.

- لسان العرب: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. ١٥ج. بيروت: دار الفكر – دار صادر.

- محاسن التأويل: القاسمي، محمد جمال الدين، علق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي. الطبعة الثانية ١٧٠ج. بيروت: دار الفكر، ١٣٩٨هـ.

- معاني القرآن: الفرّاء، أبو زكريا يحي بن زياد. ٣ج. الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ. بيروت: عالم الكتب.

- معالم التنزيل: البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء. تحقيق: خالد عبد الرحمن العك – مروان سوار. ٤ج. بيروت: دار المعرفة. الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: وضعه محمد فؤاد عبد الباقي. بيروت: دار المعرفة. الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير):الفخر الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين. الطبعة الثالثة. ٣٠ج. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

- المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد. تحقيق: محمد سيد كيلاني. بيروت: دار المعرفة.

- النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، محمد بن محمد الدمشقي. أشرف على تصحيحه ومراجعته: علي محمد الضبّاع. ٢ج. بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية.

- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر. الطبعة الأولى. ٨ج. بيروت– لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.

- النكت والعيون: الماوردي، ابو الحسن علي بن حبيب. تحقيق: خضر محمد خضر. راجعه: عبد الستار أبو غدة. الطبعة الأولى، الكويت: طباعة مقهوى. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. التراث الإسلامي، ١٤٠٣هـ.

فهرس الموضوعات

